اجرة الفضل

قال ابو العلاء المعري رحمه الله

لا تطلبنّ بآلة لك رفعة ... قلم البليغ بغير حظ مغزلُ
سكن السماكان السماء كلاهما ... هذا له رمح وهـذا اعزل

ولقد صدق هذا القائل الحكيم فانه قد يتشابه المصنفون والشعراء وذوو الالباب ولكنك ترى هذا قد اثرى بفضله وعرف الناس مقداره فاشتروا ما صنف او اثابوه على ما قال وترى ذاك قد قال مثله او اجود منه ولكنه ما اهتم لكلامه احد ولا جازاه على فضله انسان ولا بلغ من الشهرة وايثار الناس مبلغ ذاك وانما يجيء كل هذا من الحظوظ او ما يسمونه بالوسائط التي لا يهتدى اليها الا من طريق الحظ وعلى هـذا فانه قد يصح بالناس جميعهم قول البحتري

لم القَ مقدوراً على استحقاقه ... في الحظ اما ناقصاً او زائدا
وعجبت للمحدود يحرم ناصباً ... كلفاً وللمجدود يغنم قاعدا
وتفاوت الارزاق فيما بينهم ... لا يأتلين نوازلا وصواعـدا

على ان اخص ما يكون هذا في البلاد الشرقية فانك ترى الشاعر فيها مثلا وهو ليس بالشيء المذكور ولكنه يرزق وجيهاً يلتزمه ويمتدحه فينوه به ويكتسب الوجاهة منه فيسير ذكره ان لم تمتلئ كفه وترى غيره وهو مثله او افضل منه ولكنه لم يرزق احداً يسير كلامه فيقعد خاسراً غير

مكافأ على جزء مما وهب . بل هذا المتنبي الشاعر العظيم فان شعره الفتان لم يكن ليغنيه شيئاً لو لم تقدر له الحظوظ سيف الدولة الذي عرف بقدره وادرك قيمة شعره فاثابه واغناه على مقدار عقله وسلامة ذوقه وادراكه ولولا ذلك لكانت حالته كما وصف نفسه في قصيدته الدينارية بقوله

وصبيت من خوص الركاب باسود من دارش فغدوت امشي راكبا

او كما قال في بائية اخرى

فسرت نحوك لا الوي على احد احث راحلتي الفقر والادبا

فان شعر المتنبي في قصيدتيه هاتين لم يكن اقل من شعره في سيف الدولة ولكنه كان يأخذ من هذا ثلاثة الاف دينار في العام عدا الاقطاعات والمواهب المتفرقة ويأخذ من قبله ديناراً على قصيدة البيت الاول ومثله على قصيدة البيت الثاني وانما جاء وكل هذا من محاسن الحظ حتى صار ابو شجاع يرسل اليه الف دينار ليمدحه وكافور يهديه المنازل والجياد المطهمة ليسترضيه ولو كان في زمن المتنبي وامثاله حروف تطبع بها الدواوين والكتب بكثرة لكان لهم فوق ذاك الحظ حظ اخر لا يوصف . وانه لا ينكر ان من كان مثل المتنبي انما يعد ناقص الحظ مهما بلغ من السعة بالقياس الى مرتبته السامية في الشعر الا ان حظه لا ينكر بالقياس الى حظ سواه ممن كانوا في دهره وعلى تفاوت معه في الحظوظ اكثر من درجة التفاوت في القول

ثم اننا نرى الجرائد والمجلات في بلادنا وهي تسير على موجب الحظوظ اكثر من سيرها على موجب الاستحقاق فترى احداها سقيمة التركيب فاسدة التعبير كثيرة الخطل والخطاء لاحسن اختيار فيها ولا ذوق ولكنك

ترى لها من محاسن الحظوظ او الوسائط ما نبه ذكرها وسيرها في البلاد فكانت في غنى وسعة بالقياس الى فقر سواها من التي تبالغ في الاتقان والسعي في الكمال ولكنها لا ترزق شيئاً من حسن الحظ وانما كان هذا من ضعف الادراك والتمييز في هذه لاصقاع وهو من سؤ الحظ الذي اوجب لذاك القسم حسن الحظ

اما الافرنج فلهم من الحظوظ نصيب وافر وهو ما لابد منه ولكن الغالب فيهم نيل الانسان منهم لرزقه على مقدار عقله وصنعه فيكون حسن حظه وارداً من عند عقله اكثر من وروده من عند الحظ نفسه ولقد ذكرت احدى الصحائف بعض هؤلاء ممن لا يخلو نقل المروي عنهم من فائدة وعبرة

فلقد ذكرت عن احدى صحف اميركا الكبرى انها عرضت على احد الكتاب الكبار ان تشتري حق نشرها لكتابه فيها فرضي ولكن بعشرة جنيهات لكل خمسين كلمة فقط اي انه باع الكلمة الواحدة من قوله بريال مصري وهذا ولا شك اجرة عقل وصواب قول ولكن لا ريب ان قد كان للحظ معه شأن يذكر ولكنه لا يذكر لدى سواه فانهم حدثوا عن الشاعر تنسون الانكليزي انه نظم قصيدة وباعها الى جريدة فكانت كل كلمة منها بجنيهين ونظم بالامس رديارد كبلنغ قصيدة قصيرة في شأن حرب الروس واليابان فباعها بمئتي جنيه اي راتب شاعر وكاتب كبير في هذه البلاد مدة سنة بتمامها . وذكروا عن مؤلف آخر انه باع كل كلمة من كتابه بريال ولكن الكتاب كان ١٢٠ الف كلمة فكأن الرجل قد اثرى ثراء تاماً من

عمل واحد من اعمال عقله والله يعلم ماذا كانت اجرة جميعها اذا كان قد باعها جميعها بهذا السعر

ولقد رووا عن كثير من علماء الافرنج روايات شتى عن مبلغ نيلهم من صناعة التلم وهي لغرابتها اقرب الى الخرافة منها الى الصواب ولكنها حقيقة ولقد كان منها ثراء فاحش حتى ذكروا عن كاتب واحد انه نال من شق قلمه مئة الف ليرا ونال غيره عشرين الف جنيه لكتاب واحد وغيره عشرة واثني عشر الى مثل هذه المقادير التي تعد عندنا نهاية ثروة المتأدب ولكن هيهات ان يظل متأدباً من ينال هذا القدر من قلمه او حسن حظه بل هو ينقلب الى التجارة حتى البورصة تاركاً دار الادب تبغي من بناها

الا ان الافرنج ليسوا سواء لدى الاجرة ومقادير الافهام فان مجيدين كثيرين منهم لم يكن احدهم ينال اكثر من عشر بارات على السطر ومنهم من باع كتاباً بجملته بستين جنيهاً ومنهم من باع كتاب نحو نفيس بمبلغ خمسة جنيهات فقط وروي عن احدهم انه نشر كتاباً يضع مؤلفه في مصاف المخلدين ولكن كلماته حسبت فوجدت اجرة الكلمة منها لا تزيد عن ميليمين وانما اصيب هؤلاء بهذا الكساد الغريب لانهم لم يرزقوا حظاً ولم يقدر لهم من يفهم كل كلامهم فباؤا خاسرين

اما في بلادنا فسواء رزق اولو الاقلام حظا او لم يرزقوا فهم خاسرون على كل حال حتى انك لو عاملتهم بحساب الكلمة او السطر لما زادت اجرة المجيد منهم عن نصف غرش للسطر الواحد ولكنها اذا كانت مما يؤثر ويحفظ وحسنت فيما بعد حال الاداب فان اعقابهم ينتفعون منها نفعاً يذكر

بل ان الاداب اذا لم ترق الا الى درجة صحف المجون والخلاعة في هذه الايام فان النفع منها يكون مذكوراً لانك لو حسبت اجرة السطر من صحف السخف والرقاعة لوجدته يباع بجنيه ولقد مر على احدى هذه الصحف زمن قيل انها كانت تبيع فيه نحو عشرين الف نسخة في الاسبوع وعلى هذا لا يكون السطر قد صدر من قلم كاتبها باقل من جنيه وهو من المحال ان تكون قد نالته صحيفة جدية الا اذا كانت قصيدة شاعر نظمت في مديح اسخى كريم فقد يسوى البيت منها جنيها ولكنها قد تكون قصيدة العمر كله اذ هيهات ان يتكرر له ذلك حين يريد ولو رزق بلاغة احمد ورشاقة الوليد

اما مصنفو العرب وشعراؤهم الغابرون فلا ندري شيئاً مما اصيبوا به من محاسن الحظوظ ومبالغ الاجور ولكن الذي يظهر من اقوالهم ان سوء الحظ وقلة الاجر كانا رفيقي اكثرهم كما يبدو ذلك من منظوماتهم ومنثوراتهم الكثيرة في ذم الدهر والسخط على الاغنياء الذين لا يعرفون لهم قدراً ولا يجازونهم على فضل حق لقد ذكر عن القاضي عبد الوهاب المالكي انه لما نبت به بغداد خرج منها طالباً مصر فشيعه من اكابر اهلها وفضلائها جماعة موفورة فقال لهم لما ودعهم لو وجدت بين ظهرانيكم كل غداة وعشية رغيفين لما فارقتكم وهو الذي يقول في بغداد

بغداد دار لاهل العلم طيبة ... وللمفاليس دار الضنك والضيقِ
اقمت فيها مضاعاً بين ساكنها ... كاني مصحف في بيت زنديق

على انه عجيب لبغداد ان تكون في هذا الحد من كساد الادب ولكن

لعل هذا حدث في زمان اشتداد خلاعتها وفجورها او ازماتها السياسية الا ان كثيرين من اهل الفضل ذموا بغداد وفي جملتهم الوليد فقال فيها

واطريت لي بغداد اطراء مادح وهذي لياليها فكيف شهورها

وفيها يقول

ما انصفت بغداد حين توحشت لنزيلها وهي المحل الآنس

مع انه كان يقول

طلعت على بغداد اخلق طالب لنجح واحرى وافد ان يكرّما

الا ان احواله بعد ذلك حسنت فيها ونال اجرة وافرة على الفضل

وواقعة القاضي عبد الوهاب تشبه واقعة النضر بن شميل النحوي فانه لما ضاقت معيشته بالبصره خرج يريد خراسان فشيعه من اهلها نحو ثلاثة الاف رجل ما فيهم الا محدث او نحوي او عروضي او اخباري او لغوي فلما صار بالمربد قال يا اهل البصره لو وجدت كل يوم كيلجة باقلاء مافارقتكم فلم يكن فيهم من يتكلف له ذلك وهذا من قبيح ما يروى عن مثالب اهل البصره الذين صنف لهم كتاب خاص يذكر به ضياع اجرة الفضل بينهم

الا ان العرب لا يخلون من جمهور كبير من اولي الفضل نالوا الحظ وحسن الاجر معاً ولكنهم كانوا من المبرزين السابقين كالخوارزمي والهمذاني والمتنبي والبحتري ومن يجري مجراهم من اولي الاختراع والابداع فان الملوك كانوا يقربونهم اليهم ويجازونهم اذ لم تكن مطابع تشتري اقوالهم

ولقد كانوا ممتازين شيئاً من جهة المعاملة في الحكم فلا يجار عليهم ولا يعاملون كسائر الرعية حتى لقد ذكر البحتري عن نفسه انه كان يعفى من

دفع الضرائب على عقاره وارضه ولذلك قال حين طولب مرة بمال التقسيط

امر تجمع من حباء خلائف ... توليت تسيير المديح لهم وحدي
فردوا التوافي السائرات بحد حكم ... وما اكسبتكم من ثناء ومن مجد
وشرخ شباب قد نضوت جديده ... لديكم كما ينضو الفتى سمل البرد
وما انا والتقسيط اذ تكتبونني ... وتكتب قبلي جلة القوم اوبعدي
سبيلي ان أُعطى الذي تطلبونه ... وشرطي ان يجدى عليَّ ولا اجدي
صحبت اناساً اطلب المال عندهم ... فكيف يكون المال مطلباً عندي

وهو قول يستفاد منه انهم يخالفون العادة معه ولذلك انكر عليهم طلبهم بهذه الابيات الشديدة ولعل كثيرين من امثاله كانوا يمتازون بذلك مجازاة لفضلهم فوق امتيازهم بفرط الادلال على الملوك واستيلائهم منهم الخيول والمنازل والحلي فكانوا يهبونها طائعين . اما الذين برح بهم العسر كل دهرهم فلم يكونوا في حد هذا الفضل لان الجيدين جداً قد اعسروا في بداءات اعمارهم واول دخولهم الى حلقة الفضل كما اصاب القار ابي ولكن حياتهم على الارجح كانت مختتمة بالنعمة والراحة لان الفضل الحقيقي التام لا يعدم نصيراً في كل زمان ومكان